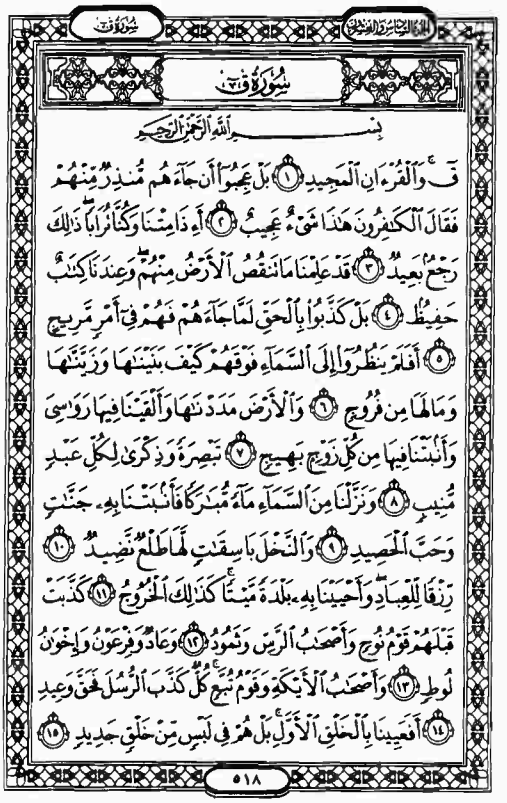

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

ق والقرآن المجيد ﴿١﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم
فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴿٢﴾ أإذا متنا وكنا ترابا ذلك
رجع بعيد ﴿٣﴾ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب
حفيظ ﴿٤﴾ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج
﴿٥﴾ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج ﴿٦﴾ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي
وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴿٧﴾ تبصرة وذكرى لكل عبد
منيب ﴿٨﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات
وحب الحصيد ﴿٩﴾ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴿١٠﴾
رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴿١١﴾ كذبت
قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ﴿١٢﴾ وعاد وفرعون وإخوان
لوط ﴿١٣﴾ وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد
﴿١٤﴾ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴿١٥﴾

٥١٨

سورة ق

معانى الكلمات :

رجع : رجوع .

تنقص : تأكل .

مريج : مختلط مضطرب .

فروج : شقوق .

باسقات : طوالا أو حوامل بالبلح .

نضيد : متراكم بعضه فوق بعض .

أفعيينا : أفعجزنا ؟!

لبس : خلط وشبهة وشك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على كيفية الله لتقرير البعث .

٢ ـ أن نعلم بعض مظاهر قدرة الله تعالى .

٣ ـ أن نتعرف على بعض صفحات من كتاب التاريخ البشرى والتى تنطق بمصير المكذبين .

المحتوى التربوى :

كان رسول الله ﷺ يخطب بهذه الصورة فى العيد والجمعة ، فيجعلها هى موضوع خطبته ومادتها فى الجماعات الحافلة وإن لها شأنا، وتبدأ السورة بالقسم، القسم بالحرف وبالقرآن المجيد، المؤلف من مثل هذا الحرف ، بل إنه هو أول حرف فى لفظ قرآن ، والأمر جلل فالله يبدأ الحديث بالقسم ، ويضرب بعده بحرف ﴿ بَلْ ﴾ ليبدأ حديثاً كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم فى القرآن المجيد من أمر البعث والخروج ، بل هو الأمر الطبيعى الذى تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب .

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا ـ بصفة خاصة ـ من أمر البعث الذى حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم ، فقضية البعث قضية قاعدة أساسية فى العقيدة الإسلامية ، قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة .

والمسألة فى نظر الكافرين هى مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلى وهى نظرة ساذجة ؛ لأن معجزة الحياة التى حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم فى كل لحظة ، وتحيط بهم فى جنبات الكون كله ، وهذا هو الجانب الذى قادهم إليه القرآن فى هذه السورة ، فالناس يموتون ، وإذن فهم يصيرون ترابا ، وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الحياء حوله .

والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوى وقعها ، وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئا فشيئا ، ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطراد وتبلى، ليقول: إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم، وهو مسجل فى كتاب حفيظ ، فهم لا يذهبون ضياعا إذا ماتوا وكانوا ترابا . ثم تكشف عن حقيقة حالهم التى تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية ، ذلك أنهم تركوا الحق الثابت فمادت الأرض من تحتهم، ولم يعودوا يستقرون على شئ أبداً، وهو أبداً فى أمر مريج لا يستقر على حال.

ويعرض السياق بعض مظاهر الحق فى بناء الكون فيوجه أنظارهم إلى السماء والأرض وإلى الرواسى وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات وإلى الجنات والنبات فى تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسى الجميل .

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه ، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ، إن الثبات والكمال والجمال هى صفة السماء التى تتناسق مع السياق هنا ، مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال ، ومن ثم تجىء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج ، فالامتداد فى الأرض والرواسى الثابتات والبهجة فى النبات ، تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال التى وجه النظر إليها فى السماء ، وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الحق الكون تبصرة تكشف الحجب وتنير البصيرة وتفتح القلوب ، تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب يرجع إلى ربه من قريب ، وبعد هذه اللفتة يمضى فى عرض صفحات فى كتاب الكون ـ فى طريقه إلى قضية الإحياء والبعث ، والماء النازل من السماء آية تحيى موات القلوب قبل أن تحيى موات الأرض ، ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله فى يد الله سببًا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد ـ وهو النبات المحصود ـ ومما ينبته به النخل ويصفها بالسموق

والجمال ، وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد فى النخل الباسق ، وذلك تمشيا مع جو الحق وظلاله ، الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع رزقا يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره للعباد وهو المولى وهم لا يقدرون ولا يشكرون ، وهنا ينتهى بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير ، فالله أحيا بالماء الأرض التى كانت هامدة ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف فى حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيى الله الموتى ، فهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم مألوفة لهم ، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب .

ثم يعقب السياق بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشرى بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون ، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون فى قضية البعث ، وكذبوا كما يكذبون الرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذى لا مفر منه ولا محيد .

والرس: البئر المطوية غير المبنية ، والأيكة : الشجر الملتف الكثيف ، وأصحاب الأيكة : هم ـ فى الغالب ـ قوم شعيب، أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة،وكذلك قوم تبع، **وتبع** : لقب لملوك حمير باليمن ، وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارئ القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام ، ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين ، حين كذبوا الرسل ، والذى يلفت النظر هو النص على أن كلا منهم كذب الرسل ، وهى لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة ، فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعون ، والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها وصورة منها ، ومن يمس فرعا فقد مس الأصل وسائر الفروع ونالهم ما يعرف السامعون من الوعيد .

وفى ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التى بها يكذبون ، قضية البعث من جديد ، ويسأل : أعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة ؟ والخلق شاهد فلا حاجة إلى جواب وهم غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود، فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود؟!

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى الكون دلائل واضحة على قدرة الله عز وجل وعظمته .

٢ ـ كل شىء محفوظ فى علم الله تعالى ومكتوب فى اللوح المحفوظ فلا يغيب عنه شىء .

٣ ـ من يفارق الحق تتقاذفه الأهواء وتمزقه الحيرة ، ويضطرب سعيه هنا وهناك .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ
﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾
٥١٩

معانى الكلمات :

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق .

سكرة : شدة .

تحيد : تميل عنه .

حديد : نافذ قوى .

عتيد : حاضر .

قرينه : شيطانه .

أزلفت : قُرِّبَتْ .

أواب : رجاع إلى الله بالتوبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مراقبة الله تعالى لخلقه،وتكليف ملائكته بتسجيل كل ما يقوله الإنسان أن يفعله.

٢ ـ أن نستشعر حالة الاحتضار ، وعدم استطاعة الإنسان الهرب من الموت .

٣ ـ أن نعلم جزاء المتقين وألوان تكريمهم فى الآخرة .

المحتوى التربوى :

يعالج السياق القلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة ، إنها تلك الرقابة ومشاهدها التى تمثلها وتشخصها ، ثم مشهد الموت وسكراته ، ثم مشهد الحساب وعرض السجلات ، ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كل ما ألقى فيها وقودها البشرى تسأل المزيد ، وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم ، فهى رحلة واحدة تبدأ من الميلاد وتمر بالموت ، وتنتهى بالبعث والحساب ، رحلة واحدة متصلة بلا توقف ، ترسم للقلب طريقه الوحيد الذى لا فكاك عنه ولا محيد ، وهو من أول الطريق إلى آخره فى قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التى لا تفتر ولا تغفل .

وابتداء الآية بأن الله تعالى خالق الإنسان يشير أن صانع الآلة أدرى بتركيبها ، وأسرارها وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشئ مادتها، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها، فكيف بالمنشئ الموجد الخالق؟

إن الإنسان خارج من يد الله أصلا ، فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره ، وكل ما فى نفسه من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذى ينكره ويجحده .

وحين يتصور الإنسان حقيقة أن رقابة الله أقرب إليه من الوريد الذى يجرى فيه دمه ، واستحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها ، بل ما جرؤ على هاجسةٍ فى الضمير لا تنال القبول لكافية ليعيش بها الإنسان فى حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة ، ولكن القرآن يستطرد فى إحكام الرقابة ، فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها .

يقول صاحب الظلال : « وحسبنا أن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا ، ومن يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون فى سجل حسابنا بين يدى الله الذى لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير ، حسبنا أن نعيش فى ظل هذه الحقيقة الرهيبة ، وهى حقيقة ، ولو لم ندرك نحن كيفيتها ، وهى كائنة فى صورة ما من الصور ، ولا مفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها ، لا لننفق الجهد عبثا فى معرفة كيفيتها ، والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا » .

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار ، والموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطئ الخطا ولا يخلف الميعاد ، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ، وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان أن هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ويلفت النظر فى التعبير ذكر كلمة الحق ، وهى توحى بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهى سكرات الموت ، تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدى إدراك ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان .

ومن سكرة الموت إلى وهلة الحشر وهول الحساب ، وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب ، جاءت كل نفس ، فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء ، ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا ، وقد يكونان غيرهما والأول أرجح ، وفى هذا الموقف العصيب يقال له : هذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها ، فالآن انظر فبصرك قوى لا يحجبه حجاب .

هنا يتقدم قرينه والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سجل حياته ، وهو حاضر مهيأ معد لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد ، ولا يذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم

وتنفيذه ، إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم للملكين الحافظين السائق والشهيد ، ويزيد الموقف حرجا وشدة ، ويوصف الكفار بنعوت تدل على غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب، وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة: كفار . عنيد مناع للخير . معتد . مريب الذى جعل مع الله إلها آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد بإلقائه فى العذاب الشديد .

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحبا له وقرينا ، ربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم نفسه فاستمع لغوايته ، وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو ، وقد يكون القرين هو الملك صاحب (السجل ، ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ ـ وهو برئ ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى ـ فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه ، وتبرئ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

وهنا يجىء القول الفصل فينتهى كل قول ، فالمقام ليس مقام اختصام ، وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل ، وكل شىء مسجل لا يبدل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل ، ويكشف السياق عن جانب من مشهد الحساب مخيف ، فتعرض جهنم فيه فى معرض الحوار ، وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب ، هذا كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب هؤلاء هم كثرة نفذت فى جهنم تباعا ، وتتكدس ركاما ، ثم تنادى جهنم هل اكتفيت ولكنها تتلمظ وتتحرق تريد المزيد فيا للهول الرعيب .

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين حتى تتراءى لهم من قريب مع الترحيب والتكريم فى كل كلمة وكل حركة ، فالجنة لا يذهبون إليها بل هى التى تجىء لا تبعد منهم ، ونعيم الرضا يتلقاهم مع الجنة ويوصفون من الملأ الأعلى بأنهم تائبون يحفظون العهد ، يخافون الله فى سرهم وخلوتهم ، وقلوبهم سليمة خاضعة لله ، ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج ، ثم يؤذن فى الملأ الأعلى ، إعلانا بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود ، فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم ، فالمزيد من ربهم غير محدود .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجب أن يتذكر الإنسان دائما المصير المخيف للكافرين ، والثواب العظيم للمتقين حتى يتجنب ما يغضب الله.

٢ـ المؤمن إنسان إيجابى يسهم فى الحياة والمجتمع الذى يعيش فيه ويقدم دائما الخير والمساعدة لغيره .

٣ ـ على الإنسان ألا ينطق بكلمة خبيثة أو يلفظ سيئ ؛ لأن كل كلمة ينطق بها لسانه يسجلها ملك فى كتاب أعماله ، وسوف يحاسب عليها .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

معانى الكلمات :

بطشا : قوة .

نقبوا : تنقلوا .

محيص : مفر ومهرب .

لغوب : تعب وإحياء .

الصيحة : النفخة الثانية .

الذاريات : الرياح تفرق الغبار .

الحاملات : سحب تحمل الأمطار .

الجاريات : السفن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم أخذ العبرة والعظات من التاريخ .

٢ ـ أن نعلم قدرة الله وعظمته فى بديع مخلوقاته .

٣ ـ أن نعلم أن ما وعد الله الناس لابد أن يقع من رزق أو بعث أو جزاء .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق إهلاك الله لقرون كثيرة قد خلت ، ويضيف إليها حركة القرون وهى تتقلب فى البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهى مأخوذة فى القبضة التى لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولافكاك ، وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية ، فيقول أنها هلاك القرون ذكرى ، وفى مصارع الغابرين ذكرى لمن كان له قلب ، ويكفى للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها فى النفوس ، وإنه للحق ، فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين شديدة التأثر بها .

والله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما كان هناك من تعب ونصب فما مسه تعالى لغوب، والسياق يوحى بيسر الخلق والإنشاء فى هذا الخلق الهائل .

يقول ابن كثير رحمه الله : « فيه تقرير المعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى ، وقالت اليهود عليهم لعائن الله خَلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه».

وعقب السياق بخطاب الرسول ﷺ بالصبر على ما يقوله المكذبون وأن يهجرهم هجراً جميلا، وأن يسبح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب،ويسبح فى الليل وبعد الصلاة.

يقول صاحب الظلال : « وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب ، كلها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض ، وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود ، ويتحدث فى ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث والتسبيح والسجود موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور فى الحس كلما نظر إلى السموات والأرض ، وكلما رأى مطلع الشمس أو مقدم الليل ، وكلما سجد لله فى شروق أو غروب .

ثم لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة .. اصبر وسبح واسجد ، وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار لا يغفل عنه إلا الغافلون » .

ويذكر السياق من أهوال القيامة يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء ، وإنه لمشهد جديد مثير لذلك اليوم العسير ، وعبر هنا عن النفخة بالصيحة ، وصور مشهد الخروج ، ومشهد تشقق الأرض عنهم وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ فى الصور وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق الأرض عنهم ، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا ، مبادرين إلى أمر الله عز وجل ، هذه الخلائق التى غبرت فى تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة ، تشقق القبور التى لا تحصى ، والتى تعاقب فيها الموتى كما يقول المعرى :

رب قبر قد صار قبراً مزاراً ضاحك من تزاحم الأضـــداد
ودفين على بقـايـا دفـيـن فـى طـويـل الآجـال والآمـاد

كلها تشقق ، وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة فى مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله ، وإنه لمشهد عجيب لا يأتى عليه الخيال .

وفى ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التى فيها يجادلون وبها يجحدون ، فالله سبحانه يحيى ويميت وإليه المرجع ، والحشر يسير فى أنسب وقت للتقرير ، وفى ظلال هذا المشهد كذلك

يتوجه بالتثبيت للرسول ﷺ تجاه جدلهم وتكذيبهم فى هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير ، فالله محيط عليم بما يقول لك المشركون ، وهذا حسبك فللعلم عواقبه عليهم ، وهو تهديد مخيف ملفوف ، وما أنت عليهم بصاحب سلطان فترغمه على الإيمان والتصديق ، فالأمر فى هذا ليس إليك ، إنما هو لنا فمن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون .

وذكر بالقرآن ، والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعى ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب ، على ذلك النمو العجيب ، وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان ، ففيها من القوة والسلطان ما لا يملكه الجبارون ، وفيها من الإيقاعات على القلب البشرى ما هو أشد من سياط الجبارين .

سورة الذاريات

هذه السورة ذات جو خاص ، فهى تبدأ بذكر قوى أربعة من أمر الله فى لفظ مبهم الدلالة ، يوقع فى الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر ، يقسم الله سبحانه بالرياح التى تذرو ما تذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان وما يجهل ، وبالسحاب الحاملات وقراً من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء ، وبالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء بقدرته،وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير، ثم بالملائكة المقسمات أمراً .

تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها ، وتتسم الأمور فى الكون بحسبها

يقسم الله ـ سبحانه ـ بهذه الخلائق الأربع على أن ما وعد الله به الناس لوعد صادق ، وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءاً ، وأنه إذا أمهلهم الحساب فى الأرض ، فليس بمهمل حسابهم فى الآخرة فالحساب لابد منه هناك فى الصورة التى يريدها ، وفى الوقت الذى يريده ، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه سبحانه ، إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها ، وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله لابد صادق ، وأنه حساب على الخير والشر واقع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مهمة المسلم هى مهمة رسوله ﷺ هى التبليغ والإنذار والنصح وليست إجبار الناس على الهداية .

٢ ـ ليس هناك شىء صعب على الله تعالى لا فى إنشائه وخلقه ، ولا فى إحيائه بعد موته .

٣ ـ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقسم بما شاء من مخلوقاته تعظيما لها وبيانا لأهميتها ، أما نحن العباد فلا يجوز لنا أن نحلف إلا بالله أو بصفة من صفاته .